اكتشاف موقع المعركة الفاصلة بين أسكندر المقدوني والدولة الأخمينية

عبدالرقيب يوسف*

في عام (٣٣١) قبل الميلاد حدثت إحدى كبريات المعارك الحاسمة في التاريخ القديم ألا وهي معركة (گوكملا) التي سحق فيها اسكندر المقدوني قوات الملك الأخميني (دارا) وقضى على اكبر الامبراطوريات القديمة سعة فامتدت على إثر ذلك امبراطورية أسكندر الى حدود الصين وكان اسكندر يهدف الى توحيد العالم في امبراطورية واحدة تسودها العدالة ولكنه سرعان أن توفي في مدينة بابل ودفنت فيها.

لقد ألفت عشرات الكتب بصدد أسكندر ومواهبه الفكرية والعسكرية وذكرت المعركة باسم معركة (أربلا) بصورة أكثر لما كانت مدينة أربيل عاصمة أقليم كردستان الجنوبية الحالية اكبر مدينة قريبة من مكان المعركة (بحوالي ٧٠ كم) ولو أن مكان المعركة أقرب من مدينة الموصل الحالية ولكن لم تكن الموصل (قلعة مسيلا) مدينة أما مدينة (نينوى) عاصمة الدولة الآشورية سابقاً فكانت مدمرة نتيجة قضاء الدولة الميدية على الدولة الآشورية. رغم الاشارات التاريخية الا أن موقع المعركة لم يحدد بدقة أو لم تنشر حوله معلومات مفصلة وقد جمعت معلومات عن المعركة مع تلك الاشارات التأريخية منذ سنوات غير قليلة وخاصة ملاحظة المباحث الأب البير أبونا في هامش له في (كتاب الرؤساء) لتوما المرجي حيث ذكر أن موقع المعركة (گوكملا) يقع في ناحية (بردرش) فأصبح هذا مفتاحاً لعملي ومع هذا لم أتمكن منذ سنة ١٩٩١ من زيارة المنطقة التي نشبت فيها المعركة لتحديد موقعها بدقة وتصويره لما أنه كان تحت سيطرة الجيش العراقي الى أن حررته القوات الأمريكية قبل أشهر وفي (٢٠٠٣/١٠/١٥) زرت المنطقة وهي منطقة ناحية بەردەرەش التابعة لقضاء عقرة من محافظة دهوك واكتشفت موقع قرية (گوكملا) المندثرة التي لم يبق منها أثر ظاهر والتي كانت تقع عند نقطة التقاء نهري (خازر) و(گومل) خلق قرية (كانيلان) من الشمال الغربي وخلف (جسر منذان) من الشمال وخلف القسم الجنوبي الشرقي من جبل مقلوب بحوالي (١٠-١٢كم) بينما تبعد عن مدينة عقرة بـ(٤٠كم) وبطول المسافة سهل زراعي خصب كما تبعد عن طريق اربيل- الموصل بحوالي (٣٢كم) وشرقاً. كان هناك آثار قرية قديمة عند تل أثري غير كبير يسميها سكان القرى القريبة بـ(خربة گومر) ويسمون التل بـ(تل گومر) كما يسمون آثار الجسر القديم هناك بـ(جسر گومر- پرا گومر) وكانت مياه النهر تأكل من التل تدريجياً وبسبب انحراف في مجر النهر مع تخريبات معامل الحصو في الموقع وذلك في السنوات العشرين

الماضية لم يبق شيء من آثار كل من التل وخربة (گومل– گومر) وجسرها وكانت القرية تقع في أيام اسكندر وفي العهود اللاحقة على الطريق البري الرئيسي الذي اشتهر في التاريخ بـ(الطريق الملكي) والذي كان يمتد مما وراء أفغانستان (خراسان) أو من حدود الصين الى البحر الأبيض والى آسيا الصغرى وكان الطريق يمر بايران ويدخل حدود كردستان بالقرب من مدينة همدان (أكباتان عاصمة الميديين من أجداد الأكراد) ويمر بالمدن الكردية (كنگاور) حيث معبد الآلهة الآرية (آناهيتا) وبمدينة كرمانشاه وزهاو وكركوك وأربيل ونصيبن وأورفا (الرها) وأصبح هذا الطريق أكبر وأطول طريق تجاري بري في العالم منذ العهد الأشكاني (١٢٧ق.م الى ٢٢٧ب.م) حيث كانت تجارة الصين وخاصة الحرير وتجارة البلدان الأخرى تمر منها وكانت مدينة نصيبن وأروفا من محطات المكوس (ترانزيت) ثم كان يتفرع منها طريق يتجه الى سورية وموانيء البحر الأبيض المتوسط وتصل التجارة عن طريق البحر وعن طريق آسيا الصغرى ايضاً الى بلدان الامبراطورية الرومانية في اوربا على مافصلنا ذلك في كتابنا (الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى– القسم الحضاري– الجزء الثاني). لقد وصل أسكندر وهو يواصل السير بقواته وراء القوات الأخمينية المنسحبة من آسيا الصغرى وسورية الى موقع (گوكملا– گوكامل– گومل) الذي يسميه الأكراد بـ(گومر) كما يسمون نهر (گومل) الذي ينبع من ماوراء أتروش بـ(گومر) أيضاً علما أنه لايوجد مكان آخر بهذا الأسم طوال مجرى النهر مما يفهم أنه أخذ اسمه من اسم هذا الموقع القديم وكان أسكندر قد عبر نهر دجلة من منطقة (بازبدا) التي سميت قديماً باسم مركزها تل وقرية (بازفتێ) الواقعة في جنوب غرب مدينة الجزيرة (جزيرة بوتان) وبالقرب منها على الحدود التركية السورية التي اكتشفت (أنا) موقعها وبت فيها ليلة وقد تكرر إسمها في اتفاقيات الحدود بين الرومان والفرثيين الأشكانيين وسلك أسكندر سهل (باقردا– كوردوئين) الواقع بين دجلة وسلسلة جبل الجودي الذي يسمى الآن بـ(سهل سلوپى) الذي نشأت فيها مؤخراً مدينة سلوپى الواقعة بالقرب من نقطة الخابور ودخل من موقع پيشخابور سهل باهدرا (سهل سليڤانى) بين زاخو ودهوك ثم سهل (ألقوش) فسهل (عين سفنى) وواصل السير في هذا الطريق العام المحاذي لسلسلة جبل مقلوب شمالاً فوقف عند نقطة إلتقاء نهر گومل بنهر خازر أي عند قرية وتل گومر وكان الجيش الأخميني قد استعد للحرب في السهل الممتد من گومر حتى بردرەش وسلسلة التلول الواقعة طول الحدود الغربية للسهل (سهر ناڤ كور) وتمكن من عبور الموقع والصعود شخصياً على التل القريب والمطل جنوباً على النهر والواقع خلف قرية (كانيلان) الحالية وان أقرب نقطة من التلول بالنسبة للنهر يسمى (گرێ قەلەموك) اي (تل قلموك) الذي يقابله في غرب النهر (گرێ سەردار) اي (تل السردار) اي تل القائد، ولانعلم ما اذ كان لهذا الاسم علاقة بالقائد الاسكندر أو لا. لاشك أن قوات اسكندر قد انتشرت على تل سردار والسهل الواقع بينه وبين نهر گومل الذي يمر فيه الطريق العام في السفوح الشمالية لسلسلة التلول المحاذية لجبل مقلوب التي تنتهي جنوباً بتل سردار، ولاشك أن قواته كانت تسند ظهرها الى هذه التلول وتحتمى بها فيما اذا تقهقرت الى الوراء ولايستبعد أنها

كانت تحتمي بجبل مقلوب (چیای زەردك) أيضاً لكن النصر أصبح حليفة ومما يتصور أن أبقى قسماً من قواته على هذا التل كقوات حماية خليفة وان التل الذي ذكرت المصادر أن اسكندر قد سعد فوقه كان (تل قلموك) وهو أقرب عندي من (تل سردار) وذلك بعد تطهيره من القوات الأخمينية ليشرف على سير المعركة في السهل وكانت قواته تتألف من أربعين ألف (٤٠٠٠٠) مقاتل منها (٧٠٠٠) آلاف فارس أما القوات الأخمينية فكانت مائة وأربعين (١٤٠٠٠٠) ألفاً بضمنها (٤٠٠٠٠) ألف فارس وهو الرقم الشائع ومما يتصور أن أسكندر أهتم باحتلال التلول المطلة على وادي مجرى النهر جنوباً حيث (جسر مندان) الحالي الذي سمي بعد تحريره بـ(پرا بوش) أي جسر بوش الواقع أمام (كانيلان) غرباً كي لاتتمكن قوات اخمينية من حركة إلتفاف ومن تطويق قواته من الخلف ويحتمل جداً أن المعركة شملت البعقة السهيلة الصغيرة الواقعة بين الجسر والنهر وسلسلة التلول الشرقية أي الواقعة أمام كانيلان وجنوبها الغربي فكانت أرض المعركة طوبوغرافياً تتكون من سلسلة تلول وسهل فسيح.

هذا توجد مقبرة كبيرة في التلول الواقعة خلف القرية وجنوب تل قلموك وهي مقبرة اسلامية تسمى (قەبرستانی ژن مردی) ويروي السكان صلة المتصوف الشهير ابراهيم أدهم بهذه المقبرة التي منحت بسبب ذلك وهي صلة خرافية على الأكثر- قدسية خاصة وفي أسفل المقبرة اي في سفوح التلول الشمالية وهي أراض سهلية تزرع يعثر على قبور نتيجة حفر المكائن مما يحتمل أن تكون قبور قتلى المعركة. كما يعثر على آثار الحرق تحت الأرض هناك وفي التلول وفوق المقبرة على المرتفع أسس أبنية قديمة لم أتمكن من مشاهدتها.

وأقدر أن ميدان القتال وحشد القوات الكبيرة مع معداتها ومنها حوالي (٥٠٠٠٠) خيل قد امتد الى ماوراء بليدة بردرەش التي تبعد جنوباً من النهر بحوالي (٧كم) وان قرى شيوەره ومام بوتان وآڤ خدره واسماوه عليا واسماوه سفلى وبەردەرەش الصغير ودوليجان وكانى أسبان وطوبزاوه وحتى قرية مەمو زين كانت داخلة ضمن ميدان المعركة والتحشدات وهذا مؤكد بالنسبة للبعض ومحتمل بالنسبة للبعض الآخر ولعل قطر ساحة المعركة كان يبلغ عشرين كليومتراً أو أكثر.

هذا وإن السبب الرئيسي في انهزام القوات الأخمينية والانتصار الحاسم للأسكندر فالقضاء على الامبراطورية الأخمينية هو جبن الملك دارا وتركه ميدان المعركة أثناء احتدامها والتوجه بعائلته وحاشيته الى قلعة أربيل والاحتماء بها مما أثر في انهيار معنويات قواته فالانهزام التام.

لقد صورنا موقع (گومر) ومواقع أخرى من أرض المعركة فوتواغياً وبكاميرا (ڤيديو) أيضاً وقد استفدنا بخصوص تحديد موقع تل وخربة (گوكملا- گومل- گومر) من معلومات الحاج عبدالغفور محمد رمضان البالغ من العمر (٨٣ سنة). وبالأخص من معلومات الأخ المثقف الذكي محمد سمكو عمدة كانيلان الذي رافقنا الى الموقع وإن مانكبته هنا هو الاّ مجرد الاعلان عن اكتشاف موقع هذه المعركة الشهيرة في التاريخ وسنكتب التفاصيل في بحث خاص. لقد حددنا القرى التي كان يمر بها الطريق العام القديم التي سلكه الأسكندر من منطقة عين سفنى حتى عبوره نهر الزاب الكبير

(اوليكوسين) في حدود قرية والتل الأثري (گردمامك) القديمين وكذلك القرى الواقعة على هذا الطريق من الزاب حتى مدينة أربيل كما صورنا أجزاءاً لم تشوه من الطريق العام الذي ظل قيد الاستعمال الى ثلاثين سنة قبل الآن وذلك في يومي (١٥ و١٦/١٠/٢٠٠٣).

علماً أني حددت موقع معركة كبيرة مشابهة وحاسمة في التاريخ القديم أدت الى زوال الامبراطورية السلوقية اي القسم الشرقي من امبراطورية اسكندر الممتد من البحر الأبيض حتى ماوراء أفغانستان وإلى البنجاب من الهند ومن روائع الصدفة انها حدثت في نفس هذه المنطقة التي سميت في التاريخ الإسلامي بمنطقة المرج وبالكردي تسمى (مێرگێ) الممتدة من نهر الخازر الى الزاب الكبير حيث قضى فرهاد الثاني الأشكاني في هذه البقعة من كردستان على ثلاثمائة (٣٠٠٠٠٠) ألف (على مافي بعض المصادر) من قوات انطيوخوس السابع سنة (١٢٩ أو ١٢٧ ق.م) التي قتل فيها انطيوخوس نفسه وكذلك القائد اليهودي هيركان (هيركانوس) الذي أحتل مدينة (بابل) واعادها الى حكم أنطيوخوس وقد حددنا مدفن هيركان كما وصورناه وصورنا موقعاً أشك انها مقتل انطيوخوس وبأخذ مجموعة من الصور المتعلقة بهذا الموضوع زادت الصور التي أخذتها (أنا) للآثار والتراث الحضاري في كردستان الكبرى على (٢١٠٠٠) صورة.

فعلى من يريد الاتصال بنا بخصوص تحديد موقع هاتين المعركتين اللتين أدتا الى سقوط امبراطوريتين كبيرتين احداهما شرقية وأخرى اغريقية غربية ودفنهما في بقعة واحدة من كردستان فليتصل على هذا العنوان:

رئاسة مجلس الوزراء لاقليم كردستان بأربيل– المستشار الخاص لشؤون الآثار والتراث الحضاري الكردي. وعلى هذا العنوان أيضاً:

السليمانية ت/ ٣١٥١٢١٨

٢٠٠٣/١٠/١٧

* ابرز المؤرخين والآثاريين الكرد ومستشار لشؤون الآثار والتراث الحضاري الكردي في رئاسة مجلس الوزراء باقليم كردستان. (ميديا).

الصورة رقم (١)

الصورة رقم (٢)

الصورة رقم (٣)

الصورة رقم (٤)

الصورة رقم (٥)

الصورة رقم (٦)

الصورة رقم (٧)

الصورة رقم (٨)

الصورة رقم (٩)

الصورة رقم (١٠)